

الباب التاسع والعشرون

أخلاق الصوفية وشرح الخلق

الصُوفية أوفرُ الناس حظاً من الاقتداء برسول الله ﷺ وأحقهم بإحياء سنته، والتخلُّق بأخلاق رسول الله ﷺ من حسن الاقتداء به وإحياء سنته؛ على ما أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين شيخ الإسلام أبو أحمد عبد الوهاب بن علي قال: أخبرنا أبو الفتح عبد الوهاب بن علي قال: أخبرنا أبو الفتح عبد الملك بن أبي القاسم الهروي، قال: أخبرنا أبو نصر عبد العزيز بن أحمد الترياقى قال: أخبرنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد الجراحى قال: أخبرنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي قال: أخبرنا أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى قال: حدثنا مسلم بن حاتم الأنصارى البصرى قال: حدثنا محمد بن عبد الله الأنصار، عن أبيه، عن علي بن زيد، عن سعد بن المسيب قال: قال أنس بن مالك، رضى الله تعالى عنه، قال لى رسول الله ﷺ: «يا بنى إن قَدَرْتَ أن تُصبح وتُمسى وليس فى قلبك عُشٌّ لأحد فأفعل»، ثم قال: «يا بنى، ذلك من سنتى، ومن أحيأ سنتى فقد أحيانى، ومن أحيانى كان معى فى الجنة»^(١).

فالصوفية أحيوا سنة رسول الله ﷺ، لأنهم وقفوا^(٢) فى بداياتهم لرعاية أقواله، وفى وسط حالهم اقتدوا بأعماله، فأثمر لهم ذلك فى نهاياتهم أن تحقَّقوا بأخلاقه، وتحسين الأخلاق لا يتأتى إلا بعد تزكية النفس، وطريق التزكية بالإذعان لسياسة الشرع، وقد قال الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(٣) لما كان أشرف الناس وأزكاهم نفساً كان أحسنهم خلقاً، قال مجاهد (على خلق عظيم) أى: دين عظيم، والدين مجموع الأعمال الصالحة، والأخلاق الحسنة. سئلت عائشة-رضى الله تعالى عنها- عن خُلُق رسول الله ﷺ قالت: كان خلقه القرآن^(٤). قال قتادة: هو ما كان يَأْتُر به من أمر الله تعالى وينتهى عما نهى الله عنه، وفى قول عائشة: كان خلقه القرآن، سرٌ كبيرٌ وعِلْمٌ غامض، ما نطقت بذلك إلا بما خصَّها الله تعالى به من بركة الوحي السماوى، وصُحبة رسول الله ﷺ وتخصيصه إيَّاهَا بكلمة «خذوا شطر دينكم من هذه الحميراء»^(٥) وذلك

(١) الترمذى عن أنس بن مالك بأسناد .

(٢) وفى نسخة : وقفوا .

(٣) آية رقم ٤ من سورة القلم .

(٤) مسلم وأبو داود من حديث طويل فى قيام الليل عن عائشة .

(٥) قال ابن حجر : لا أعرف له إسناداً ولا رأيتُه فى شئ من كتب الحديث العتمدة .

أن النفس مجبولة على غرائز وطبائع هي من لوازمها وضرورتها، خُلِقَتْ من تراب ولها بحسب ذلك طبع، وخُلِقَتْ من ماءٍ ولها بحسب ذلك طبع، وهكذا من حمأ مسنون، ومن صلصال كالفخار، وبحسب تلك الأصول التي هي مبادئ تكوُّنها استقادت صفات من البهيمية، والسُّبعية، والشيطنية، وإلى صفة الشيطانية في الإنسان إشارة بقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾^(١) لدخول النار في الفخار، وقد قال الله تعالى: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾^(٢) والله تعالى بخفي لطفه وعظيم عنايته نزع نصيب الشيطان من رسول الله ﷺ على ما ورد في حديث حليلة ابنة الحارث، أنها قالت في حديث طويل، فبينما نحن خلف بيوتنا ورسول الله ﷺ مع أخ له من الرضاعة في بهم^(٣) لنا جاءنا أخوه يشتد، فقال: ذاك أخي القرشي قد جاءه رجلان عليهما ثياب بيضاء، فاضجعا، فشقا بطنه، فخرجت أنا وأبوه نشد نحوه، فنجده قائماً منتقماً لونه، فاعتنقه لونه، فاعتنقه أبوه، وقال: أي بني، ما شأنك؟ قال: جاءني رجلان عليهما ثياب بيضاء، فاضجعا، فشقا بطني، ثم استخرجا منه شيئاً فطرحاه، ثم رداه كما كان، فرجعنا به معنا، فقال أبوه: يا حليلة، لقد خشيت أن يكون ابني هذا قد أصيب، فانطلق بنا فلنرده إلى أهله قبل أن يظهر به ما نتخوف، قالت: فاحتملناه فلم تُرَعْ أمه إلا وقد قديمنا به عليها، قالت: ما ردكنا وقد كنتما عليه خريصين؟! قلنا: لا والله، لاضير، إلا أن الله عز وجل قد أدعانا وقضينا الذي كان علينا، وقلنا نخشى الإتلاف والأحداث: فنرده إلى أهله. فقالت: ماذا فاصدقاني شأنكما؟ فلم تدعنا حتى أخبرناها خبره، فقالت: خشيتما عليه الشيطان، كلا، والله ما للشيطان عليه سبيل، وإنه لكائن لابني هذا شأن، ألا أخبركما بخبره؟ قلنا: بلى، قالت: حملت به، فما حملت حملاً قط أخف منه: فأريت في النوم حين حملت به كأنه خرج مني نور أضاءت به قصور الشام، ثم وقع حين ولدته وقوعاً لم يقعه المولود معتمداً على يديه رافعاً رأسه إلى السماء. فدعاه عنكما.

فبعد أن طهر الله رسوله من نصيب الشيطان بقيت النفس الزكية النبوية على حد نفوس البشر، لها ظهور بصفات وأخلاق مبقاة على رسول الله ﷺ رحمةً للخلق، لوجود أمهات تلك الصفات في نفوس الأمة بمزيد من الظلمة، لتفاوت حال رسول الله ﷺ وحال الأمة، فاستمدت تلك الصفات المبقاة بظهورها في رسول الله ﷺ بتنزيل الآيات المحكمات بإزائها لقمعها؛ تأديباً من الله لنبيه، رحمة خاصة له، وعامة للأمة، موزعة بنزول

(١) آية رقم ١٤ من سورة الرحمن .

(٢) آية رقم ١٥ من سورة الرحمن .

(٣) إلهم : أولاد البقر والمفرد الضآن .

الآيات على الآناء والأوقات عند ظهور الصفات، قال الله تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِيُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا)^(١)

وتثبيت الفؤاد بعد اضطرابه لحركة النفس بظهور الصفات؛ لإرتباط بين القلب والنفس. وعند كل اضطراب آية متضمنة لخلق سَنِيٍّ إمَّا تصريحًا أو تعويضًا، كما تحركت النفس الشريفة النبوية لما كُسِرَتْ رَبَاعِيَتَهُ وصار الدم يسيل على وجهه الشريف ورسول الله ﷺ يمسحه ويقول: «كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم» فأنزل الله تعالى (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ)^(٢) فاكتسى القلب النبوي لباس الاضطراب وفاء بعد الاضطراب إلى القرار، فلما توزعت الآيات على ظهور الصفات في مختلف الأوقات، صَفَّتْ الأخلاق النبوية بالقرآن؛ ليكون خُلُقُهُ القرآن، ويكون في إبقاء تلك الصفات، في نفس رسول الله ﷺ معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «إنما أنسى لأسن»^(٣).

فظهر صفات نفسه الشريفة، وقت استنزال الآيات؛ لتأديب نفوس الأمة وتهذيبها، رحمة في حقهم حتى تتزكى نفوسهم، وتشرَّفَ أخلاقهم.

- قال رسول الله ﷺ: «الأخلاق مخزونة عند الله تعالى، فإذا أراد الله تعالى بعبد خيراً منحه منها خُلُقًا» وقال ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»^(٤)، وروى عنه ﷺ: «أن لله تعالى مائة وبضعة عشر خُلُقًا من آتاه واحدًا منها دخل الجنة»^(٥) فتقديرها وتحديدتها لا يكون إلا بوحى سماوى لرسول ونبي.

والله تعالى ابرز إلى الخلق أسماءً مُثَبِّتَةً عن صفاته سبحانه وتعالى، وما أظهرها لهم إلا ليدعوهم إليها، ولولا أن الله تعالى أودع في القوى البشرية التخلق بهذه الأخلاق ما أبرزها لهم دعوة لهم إليها يختص برحمته من يشاء.

ولا يبعد - والله أعلم - أن قول عائشة رضى الله عنها: «كان خلقه القرآن» فيه رمزٌ غامض وإيماءٌ خفي إلى الأخلاق الربانية، فاحتشمت^(٦) من الحضرة الإلهية أن تقول: متخلقًا بأخلاق الله تعالى، فعيرت عن المعنى بقولها: كان خلقه القرآن استحياً من سُبُحات الجلال، وستراً للحال بلطف المقال، وهذا من وفور علمها وكمال آدابها.

(١) آية رقم ٣٢ من سورة الفرقان

(٢) آية رقم ١٢٨ من سورة آل عمران

(٣) الموطأ بلاغا عن مالك

(٤) البخارى فى الأدب والحاكم من البيهقى فى الشعب عن أبى هريرة بسند صحيح

(٥) الحكيم وأبو يعلى والبيهقى فى الشعب عن عثمان بن عفان بسند حسن

(٦) أى : استحيت

وبين قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾^(١)
 وبين قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(٢) مناسبة مشعرة بقول عائشة رضی الله
 عنها: كان خلقه القرآن^(٣).

قال الجنيد رحمه الله تعالى: كان خلقه عظيماً^(٤)، لأنه لم يكن له همة سوى الله تعالى
 وقال الواسطي، رحمه الله تعالى: لأنه جاء بالكونين عوضاً عن الحق^(٥).
 وقيل: لأنه عليه الصلاة والسلام عاشر الخلق بخلقهم وباينهم بقلبه؛ وهذا ما قاله
 بعضهم في معنى التصوف:

التصوف الخلق مع الخلق، والصدق مع الحق.

وقيل: عظم خلقه حيث صغرت الأكوان في عينه لمشاهدة مكوّنها.

وقيل: سقى خلقه عظيماً لاجتماع مكارم الأخلاق فيه.

وقد ندب لرسول الله ﷺ أمته إلى حسن الخلق في حديث أخبرنا به الشيخ العالم
 ضياء الدين بن عبد الوهاب بن علي قال:

أخبرنا أبو الفتح الهروي قال أخبرنا أبو نصر الترياقى قال: أخبرنا أبو محمد
 الجراحى قال: أخبرنا أبو العباس المحبوبي قال: أخبرنا أبو عيسى الحافظ الترمذى
 قال: حدثنا أحمد بن الحسين بن خراش قال: حدثنا حيّان بن هلال قال: حدثنا
 مبارك بن فضالة قال: حدثني عبد الله بن سعيد، عن محمد بن المنكدر عن جابر،
 رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«إن من أحبكم إلى وأقربكم منى مجلساً يوم القيامة أحسنكم أخلاقاً وإن أبغضكم إلى
 وأبعدكم منى مجلساً يوم القيامة الثرثارون المتشدقون المتفقيهون» ..

قالوا: يا رسول الله علمنا الثرثارون. والمتشدقون، فما المتفقيهون؟؟ قال:
 «المتفقيهون المتكبرون»^(٦)

(١) آية رقم ٨٧ من سورة الحجر

(٢) آية رقم ٤ من سورة القلم

(٣) حديث كان خلقه القرآن: أخرجه الإمام احمد في مسنده، والإمام مسلم في صحيحه وأبو داود في سننه عن
 عائشة رضی الله عنها.

(٤) وفي نسخة: سمي خلقه عظيماً.

(٥) أى ترك الدنيا في سبيل الله سبحانه وتعالى.

(٦) أخرجه البخارى عن ابن عمرو هو حديث صحيح، ورواه الترمذى وقال حديث حسن.

والثرثار هو : المكثار يكثر من الحديث ، والمتشدد : المتناول على الناس فى الكلام .
قال الواسطى رحمه الله تعالى : الخُلُق العظيم أن لا يخاصم ولا يخاصم . وقال أيضاً :
وان لعلى خلق عظيم لوجدانك حلاوة المطالعة على سرك .
وقال أيضاً : لأن قبلت فنون ما أسديتُ إليك من نعمى أحسنَ مما قبله غيرك من
الأنبياء والرسل .

وقال الحسين بن منصور الحلاج : لأنه لم يُؤثر فيك جفاء الخلق مع مطالعة الحق .
وقيل : الخُلُق العظيم لباس التقوى والتخلُّق بأخلاق الله تعالى إذ لم يبق للأعواض
عنده خطر .

وقال بعضهم : قوله تعالى : ﴿لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾^(١) .
أتم ، لأنه حيث قال : ﴿وإنك﴾ أحضره ، وإذا أحضره أغفله وحجبه ، وقوله :
(لأخذنا) أتم ؛ لأن فيه فناء .

وفى قوله هذا القائل نظر ، فهلاً قال : إن كان فى ذلك فناءً ففى قوله : (وإنك)
بقاء ، وهو بقاء بعد فناء ، والبقاء أتم من الفناء ، وهذا أليق بمنصب الرسالة ؛ لأن الفناء
إنما عزٌّ لمزاحمة وجودٍ مذموم ، فإذا نُزع المذموم من الوجود ، وتبدلت النعوت فأى عزّة
تبقى فى الفناء ؟ فيكون حضوره بالله ، لا بنفسه ، وأى حَجَبَة تبقى هنالك ؟
وقيل : من أوتى الخُلُق فقد أوتى أعظم المقامات ؛ لأن للمقامات ارتباطاً عاماً ، والخُلُق
ارتباط بالنعوت والصفات .

وقال الجنيد : اجتمع فيه أربعة أشياء : السخاء والألفة ، والنصيحة والشفقة .
وقال ابن عطاء : الخُلُق العظيم أن لا يكون له اختيار . ويكون تحت الحكم مع فناء
النفس وفناء المألوفات .

وقال أبو سعيد القرشى : العظيم هو الله ، ومن أخلاقه : الجود ، والكرم ، والصفح ،
والعفو ، والإحسان ، ألا ترى إلى قوله عليه السلام .

« إن لله مائة وبضعة عشر خُلُقاً من أوتى بواحد منها دخل الجنة »^(٢) .

فلما تخلَّق بأخلاق الله تعالى وجد الثناء عليه بقوله : ﴿وإنك لعلى خُلُقٍ عظيمٍ﴾ .

(١) آية رقم ٤٥ من سورة الحاقة .

(٢) الحكيم الترمذى وغيره عن عثمان بن عفان بسند حسن .

وقيل : عظم خُلُقك ؛ لأنك لم ترض بالأخلاق ، وسرت ولم تسكن إلى النعمت حتى وصلت إلى الذات . وقيل : لما بعث محمد ﷺ إلى الحجاز حَجَرَهُ بها عن اللذات والشهوات ، وألقاه في العُربة والجفوة ، فلما صفا بذلك من دنس الأخلاق ، قال له : **(وَأِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)**.

أخبرنا الشيخ الصالح أبو زُرعة بن الحافظ أبي الفضل محمد بن طاهر المقدسي ، عن أبيه قال : أخبرنا أبو عمر المليحي قال : أخبرنا أبو محمد عبدالله بن يوسف قال : أخبرنا أبو سعيد بن الأعرابي قال : حدثنا جعفر بن الحجاج الرقي قال : أخبرنا أيوب بن محمد الوزان قال : حدثني الوليد قال : حدثني ثابت ، عن يزيد ، عن الأوزاعي ، عن الزهري ، عن عروة عن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : كان نبي الله ﷺ يقول :

مكارم الأخلاق عشرة تكون في الرجل ولا تكون في ابنه ، وتكون في الابن ولا تكون في أبيه ، وتكون في العبد ولا تكون في سيده ، يقسمها الله تعالى لمن أراد به السعادة : **صِدْقُ الْحَدِيثِ ، وَصِدْقُ الْبَاسِ ، وَأَنْ لَا يَشِيعَ وَجَارُهُ وَصَاحِبُهُ جَائِعَانُ وَإِعْطَاءُ السَّائِلِ وَالْمُكَافَأَةُ بِالصَّنَائِعِ ، وَحِفْظُ الْأَمَانَةِ ، وَصَلَةُ الرَّحْمِ وَالتَّذَمُّمُ^(١) لِلصَّاحِبِ ، وَإِقْرَاءُ الضَّيْفِ .** ورأسهن الحياء^(٢) .

وسئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة ، قال ﷺ : **(تقوى الله . وحسن الخلق)** وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار ، فقال ﷺ : **(الغم والفرح)^(٣)** . [يكون هذا الغم غم فوات الحظوظ العاجلة ؛ لأن ذلك يتضمن التسخط والتضجر ، وفيه الاعتراض على الله تعالى ، وعدم الرضا بالقضاء ، ويكون الفرح المشار إليه الفرح بالحظوظ العاجلة الممنوع منه بقوله تعالى : **(لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَيَّ مَا فَاتَكُمُ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُم)** وهو الفرح الذي قال الله تعالى : **(إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ لَا تَفْرَحُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ)** لما رأى مفاتحه تنوء بالعصبة أولى القوة .

فأما الفرح بالأقسام الأخروية فمحمود يُنافس فيه ، قال الله تعالى : **(قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا)**^(٤) [٥]

(١) حفظ المعهد .

(٢) الحكيم والبيهقي في الشعب عن عائشة بسند ضعيف .

(٣) الترمذي وقال صحيح غريب ج ٣ ص ٢٤٥ ووراه عن أبي هريرة .

(٤) الآية من سورة يونس رقم ٥٨ .

(٥) ما بين القوسين ساخط في بعض النسخ .

وفسرَ عبدالله بن المبارك حُسن الخلق فقال: هو بَسَطُ الوجه، وبذلُ المعروف، وكفُّ الأذى.

فالصوفية راضوا نفوسهم بالمكابدات والمجاهدات حتى أجابت إلى تحسين الأخلاق. وكم من نفس تُجيب إلى الأعمال ولا تُجيب إلى الأخلاق؛ فنفس العباد أجابت إلى الأعمال وجمحت عن الأخلاق، ونفس الزهاد أجبت إلى بعض الأخلاق دون بعض ونفس الصوفية أجابت إلى الأخلاق الكريمة كلها.

أخبرنا الشيخ أبو زرعة، إجازة عن أبي بكر بن خلف، إجازة، عن السلمي قال: سمعت حسين بن أحمد بن جعفر يقول: سمعت أبا بكر الكنانى يقول: التصوف خُلُق، فمن زاد عليك فى الخلق زاد عليك فى التصوف^(١).

فالعباد أجابت نفوسهم إلى الأعمال؛ لأنهم يسلكون بنور الإسلام، والزهاد أجابت نفوسهم إلى بعض الأخلاق لكونهم سلكوا بنور الإيمان، والصوفية أهل القرب سلكوا بنور الإحسان، فلما باشر بواطن أهل القرب والصوفية نُور اليقين، وتأصل فى بواطنهم ذلك انصلح القلب بكل أرجائه وجوانبه، لأن القلب يَبْيِضُ بعضه بنور الإسلام، وبعضه بنور الإيمان، وكله بنور الإحسان واليقين.

فإذا ابيض القلب وتنور انعكس نوره على النفس، وللقلب وجه إلى النفس ووجه إلى الروح، وللنفس وجه إلى القلب، ووجه إلى الطبع والغريزة، والقلب إذا لم يبيض كله لم يتوجه إلى الروح بكله، ويكون ذا وجهين:

وجه إلى الروح، ووجه إلى النفس، فإذا ابيض كله توجه إلى الروح بكله، فيتداركه مدد الروح، ويزداد إشراقاً وتنوراً وكلما انجذب القلب إلى الروح انجذبت النفس إلى القلب، وكلما انجذبت توجهت إلى القلب بوجهها الذى يليه، وتتنور النفس لتوجهها إلى القلب بوجهها الذى يلي القلب، وعلامة تنورها طمأنينتها قال تعالى:

﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ أَرْجَعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَةً﴾^(٢)

وتنور وجهها الذى يلي القلب بمثابة نورانية أحد وجهى الصدف؛ لاكتساب النورانية من اللؤلؤ.

وبقاء شئ من الظلمة على النفس لنسبة وجهها الذى يلي الغريزة والطبع كبقاء ظاهر الصدف على ضرب من الكدر والنقصان مخالف لنورانية باطنة.

(١) انظر الرسالة القشيرية.

(٢) آية رقم ٢٨ من سورة الفجر.

· وإذا تَنَوَّرَ أحدٌ وجهي النفس لجأت^(١) إلى تحسين الأخلاق وتبديل النعوت، ولذلك سُمي الأبدال أبدالاً.

والسرُّ الأكبر في ذلك أن قلب الصوفى بدوام الإقبال على الله ودوام الذكر بالقلب واللسان يرتقى إلى ذكر الذات، ويصير حينئذ بمثابة العرش، فالعرش قلب الكائنات في عالم الخلق والحكمة، والقلب عرشٌ في عالم الأمر والقدرة.

قال سهل بن عبد الله التستري: «القلب كالعرش، والصدر كالكرسي».

وقد ورد عن الله تعالى: «ما يسعني أرضي ولا سمائي ويسعني قلب عبدي المؤمن»^(٢). فإذا اكتحل القلب بنور ذكر الذات وصار بحرًا مَواجًا من نَسَمات القرب جرى في جداول أخلاق النفس صفاءً النعوت والصفات، وتحقق التخلق بأخلاق الله تعالى.

حكى عن الشيخ أبي علي الفارمزي أنه حكى عن شيخه أبي القاسم الكركاني أنه قال: «إن الأسماء التسعة والتسعين تصير أوصافًا للعبد للسالك، وهو بعدُ في السلوك غيرُ واصل». ويكون الشيخ غني بهذا أن العبد يأخذ من كل اسم وصفًا يلائم ضعف حال البشر وقصوره؛ مثل أن يأخذ من اسم الله تعالى «الرحيم» معنى من الرحمة على قدر قصور البشر، وكل إشارات المشايخ في الأسماء والصفات التي هي أعزُّ علومهم على هذا المعنى والتفسير. وكل من توهم بذلك شيئاً من الحلول تزندق وألحد.

وقد أوصى رسول الله ﷺ معاذًا بوصية جامعة لمحاسن الأخلاق فقال له:

«يا معاذ، أوصيك بتقوى الله، وصدق الحديث، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وترك الخيانة، وحفظ الجوار، ورحمة اليتيم، ولين الكلام، وبذل السلام، وحسن العمل، ونصر الأمل، ولزوم الإيمان، والتفقه في القرآن، وحُب الآخرة، والجزع من الحساب، وخفض الجناح، وإياك أن تسب حليمًا، أو تكذب صادقًا، أو تطيع آثمًا، أو تعصي إمامًا عادلًا، أو تفسد أرضًا، أوصيك باتقاء الله عند كل حجر وشجر ومدن^(٣)، وأن تُحدث لكل ذنب توبة، السرُّ بالسرِّ والعلائية بالعلانية، بذلك أدب الله عباده ودعاهم إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب»^(٤).

(١) وفي نسخة: تجيب.

(٢) ذكره في الأحياء بلفظ قال الله تعالى [لم يسعني سمائي ولا أرضي، ويسعني قلب عبدي المؤمن اللين الوداع] قال العراقي في تخرجه: لم أر له أصلاً، ووافقه في الدرر تبعاً للزركشي.

وقال في المقاصد تبعاً لشيخه في اللآل: ليس له إسناده معروف عن النبي ﷺ ومعناه: [وسع قلبه الإيمان بي ومحبتي ومعرفتي] وإلا فمن قال: إن الله يحل في قلوب الناس فهو أكفر من النصارى الذين خصوا ذلك بالمسيح وحده.

(٣) اللذر (يفتح الميم والدال): التراب المتلبد، أو الطين المقطع.

(٤) رواه عبد بن حميد في تفسيره وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير عن أبي نر، وقال السيوطي: حسن.

وروى معاذ أيضًا عن رسول الله ﷺ قال :

«حُفَّ الإسلامُ بمكارمِ الأخلاقِ ومحاسنِ الآدابِ».

أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن عليّ، بإسناده المتقدّم إلى الترمذيّ^(١)، رحمه الله تعالى، قال: أخبرنا أبو كريب، قال: حدثنا قبيصةُ بن الليث، عن مُطرف، عن عطاء، عن أمّ الدرداء، عن أبي الدرداء قال، سمعت النبي ﷺ يقول: «ما من شيء يُوضع في الميزان أثقلُ من حسن الخلق، وإنَّ صاحبَ حُسْنِ الخلق ليبُلغ به درجةَ صاحبِ الصومِ والصلاة»^(٢).

وقد كان من أخلاق رسول ﷺ أنه كان أسخى الناس؛ لا يبيتُ عنده دينارٌ ولا درهم وإن فَضَلَ ولم يجد من يُعطيه ويأتيه الليلُ لا يأوى إلى منزله حتى يبرأ منه، ولا ينالُ من الدنيا، أكثرَ قوتِ عامِهِ من أيسر ما يجد من التمر والشعير، ويضع ماعدًا ذلك في سبيل الله، لا يُسأل شيئًا إلا يُعطي، ثم يعود إلى قوتِ عامه فيؤثر منه حتى ربمًا احتاج قبل انقضاء العام، وكان يخصف^(٣) النعل ويرقع الثوب، ويخدم في مهنة^(٤) أهله، ويقطع اللحم معهنّ، وكان أشدّ الناس حياءً وأكثرهم تواضعًا، فصلوات الرحمن عليه، وعلى آله، وأصحابه أجمعين.

(١) هو الإمام محمد بن عيسى بن سورة السُّلمى الترمذى. من أئمة علماء الحديث وحفاظه، من أهل ترمذ (وترمذ مدينة مشهورة) من أمهات المدن على نهر جيحون من جانبه الشرقى. قال فى القاموس: ترمذ كإثد بلد ببخارى) ولد سنة ٢٠٩هـ/٨٢٤م وتوفى سنة ٢٧٩هـ/٨٩٢م قام برحلة فى خراسان والعراق والحجاز، وعمى فى آخر عمره، قال ابن حبان فى كتاب «الثقات»: كان الترمذى مدن جمع وصف وحفظ. وقال أبو سعيد عبد الرحمن الإدريسى: (كان الترمذى أحد الأئمة الذين يقتدى بهم فى الحديث، صنف الجامع وكان يضرب به المثل فى الحفظ).

وكان موته بـ«ترمذ» ومن مصنفاته: كتاب الجامع ويسمى بالسنن، كتاب «العلل»، كتاب «شمائل النبي ﷺ». (أنظر فى ترجمته: أنساب السمعاني ٩٥ ونكت الهميان ص ٢٦٤ ووفيات الأعيان).

(٢) الترمذى ج٣ ص ٢٤٥ وقال حديث غريب من هذا الوجه وأبو داود.

(٣) الخصف: خرز النعل وخطاطه.

(٤) المهنة بالكسر: الخدمة.